الدولة المركزية بقلعة بني حمـــــاد: التأسيس والتداعي*

أ. الطـــاهـــر بـــونـــابـــي
جامعة المسيلـــة.

مما يلفت الانتباه لدى استعراض تاريـــخ تأسيس مدن الزاب الكبير بما فيهـــا الحضنة خلال العصر الوسيط أنها أنشئت على مسالك تجارة الذهب و الرقيق الرابطة بين بلاد السودان وافريقية خلال القرنين 4و5 الهجريين 10 و11الميلاديين. ذلك لأن الزاب شكل مركزا رئيسيا يعبره مسلكان تجاريان لقوافل الذهب والعبيد وهما: الطريق الواصل من بلاد السودان إلى سجلماسة ثم تلمسان عبر الـــزاب إلى افريقيـــة وطريق آخر مـــن بلاد السودان نحو تاهرت مرورا بالزاب إلى افريقية[1] ممـــا يـــوحي بحركية المكان ففي الزاب قوليت التجارة نوع الحياة و بالتالي التاريخ ومن ابرز فصوله قيام مدن أوجدتها الحـــاجة الأمنية لتامـــين هذين المسلكين أبرزها، مدينة المســـيلة ومدينة قلعة بني حماد و مما زاد المكان حركية، تأسيس حكـــم مركـــزي بـــالمغرب الأوسط سنة 395هـ/1004م.

فهل أن تأسيس هذه الدولة حدث أوجدته الأهمية التجارية فعلا ؟ أم بالاشتراك مع عـــنـــاصر القبيلة والمذهب ومصالح الأفراد و طموح زعماء القبـــائل ؟ وهو ما

---

* ورقة قدمت للملتقى الوطني حول : الدولة المركزية بقلعة بني حماد (الإشعاع الثقافي والفكري) بجامعة محمد بوضياف: المسيلة، 26-27 أفريل 2005

[1] البكري : المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت، 2003، ص325، ص331، ج2، ص327؛ حول أهمية هذه المسالك التجارية انظر لحاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ، تونس، منشورات الجامعة التونسية ، 1976، ص80 وما بعدها.

يعني تحديد مفهوم شامل للدولة المركزية بالقلعة، وذلك بتسخير تقارير كبار الجغرافيين والمؤرخين العرب.

الدولة المركزية بقلعة بني حماد:

لا غرابة أن الأهمية التجارية لمدينة قلعة بني حماد، قد فرضت نفسها في تقارير الجغرافيين العرب بداية من البكري (ت487) الذي دقق في رصد العلاقات التجارية بين القلعة والمشرق والمغرب الإسلامي بقوله: "وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب" [1] بينما ركز الشريف الإدريسي في القرن 6 هـ /12م على مقدرتها الاقتصادية الزراعية والصناعية و ثراء سكانها فيقول:" وفيها كانت ذخائرهم مذخرة وجميع أموالهم مختزنة والحنطة تختزن بها... والفواكه المأكولة والنعم المنتجة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير ولحومها كثيرة ... فيها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع خصب وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت فأهلها ابد الدهر شباع وأحوالهم صالحة "[2] وهذان التقريران يقودانا إلى أن مفهوما اقتصاديا قد تبلور حول الدولة المركزية بالقلعة من منظور البكري والإدريسي وفحواه أن الدولة المركزية بالقلعة دولة تجارية تقوم على احتكار الثروة الزراعية والحيوانية والطرق التجارية وإزاحة كل منافس خصوصا وأنها تتوفر على شروط الهيمنة فهي على حد تعبير الإدريسي أي القلعة "البلاد الأكبر قطرا والأكثر خلقا والأغزر خيرا والأوسع مالا"[3] وكل ذلك على حساب كيانات قبلية زراعية ورعوية محدودة المجال والقوة مثل قبائل صدراته ومزاته

---

1 البكري : المصدر السابق ، ج2، ص226 .

2 كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر للجزء الخاص بالمغرب من طرف حاج صادق، دار النشر الجامعي، الجزائر، بدون تاريخ، ص117.

3 نفسه، ص 117 .

وزنداج وبني برزال[4] ومراكز حضارية ذات أهمية تجارية مثل آشير والمسيلة ومقرة وطبنة ونقاوس وبسكرة [5].

لكن هذا المفهوم سيظل ناقصا ما لم يعزز بالدعامتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما أيضا هذه الدولة وهما العصبية والفكرة المدينية وفق نظرية ابن خلدون الخبير بنشوء دول المغرب و تطورها ثم زوالها[1].

فأما عصبية الدولة المركزية بالقلعة فهي قبيلة تلكاته الصنهاجية وقوتها العسكرية الضاربة التي ضمن بها حماد بن بلكين المؤسس وأمراء الدولة الحمادية من بعده الحمية والتكتل في إقامة الحكم الحمادي بالمعنى المادي والعسكري يقول: ابن خلدون في وصف قوة صنهاجة "هذا القبيل من أوفر قبائل البربر وهو أكثر أهل المغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط"[2].

بينما الفكرة الدينية ضمن بها حماد المشروعية من جهة ومن جهة أخرى فهي برنامج الدولة التي تسير عليه، لذا يتضح تميزه المبكرين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية فقد اعترف الأمراء الحماديون بالولاء للخلافة العباسية [3] وتخلو للفقهاء والمالكية المتعاونين معهم عن الأحكام وأشركوهم في القرار وفسحوا لهم ارتقاء

سنن وأن أشار ابن حوقل إليها في القرن الرابع الهجري.أنظر صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (ب ت)، ص 85 .

4 الإدريسي : المصدر السابق، ص ص 119، 120 .

5 المقدمة، تحقيق، حجر عاصي، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، 1991، ص 107.

[2] العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ، دار الكتاب اللبناني، 1983، ج6، ص 309؛ يذكر النويري أن جل جيش حماد بن بلكين كان من التلكاتيين . تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب)، تحقيق مصطفى أبو الضيف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 325 .

[3] يرى ابن الأثير أن الأمراء الحماديين ظلوا منذ عهد حماد بن بلكين على ولائهم للعباسيين باستثناء القائد بن حماد الذي أعاد الدعوة للفاطميين سنة 440هـ/ 1045 م. الكامل في التاريخ، ج 9، دار صادر، بيروت، 1402هـ /1962م، ص 566 .

مناصب الدولة، فتبوأ الفقهاء مراتب قيادة الجيوش الحمادية والقضاء[4] والتمثيل في السفارات الديبلوماسية [5] خصوصا وأن صنهاجة قد أدركت منذ الوهلة الأولى لتأسيسها للدولة أهمية مسالة المشروعية فأطلقت يد بعض الفقهاء لتحقيق السلطة الدينية. وبذلك تكون هذه التقارير قد وقفت بنا عند الدعامات الأساسية للدولة المركزية بالقلعة وهي التجارة والعصبية والفكرة الدينية.

جدلية الفقه و السياسة في مرحلة التأسيس:

يعود أول ظهور لحماد بن بلكين إلى سنة 385 هـ /996م على مسرح التاريخ السياسي للدولة الزيرية حينما عين من طرف أخيه المنصور بن بلكين ليشارك أخاه يطوفت وعمه أبي البهار حكم مدينة آشير والمسيلة بالتناوب [1] بيد أن تعاظم نشاط زناته بزعامة زيري بن عطية قد أجبر ابن أخيه باديس بن المنصور على تعيينه ليحكم آشير منفردا عام 387 هـ /998م ودعمه بالخيل و الكساء [2] .

فهل كان ذلك بداية تفكيره في الاستقلال عن البيت الزيري وبالتالي الانفراد بدولة سنية مالكية المذهب ؟ أم أن ذلك يعود إلى مرحلة تمدرسه بالقيروان خصوصا وأنه عاصر فصول الصراع المذهبي بين الشيعة والفقهاء المالكية بالقيروان وهي في أدق مراحلها الساخنة ؟. وبالتالي التطلع إلى تشكيل دولة على أنموذج الفقهاء المؤسسين مثل: أبو عبد الله الداعي بالنسبة للفاطميين و عبد الله بن

---

[4] من القرائن على ذلك أن الأمير الحمادي يحي بن العزيز 515هـ - 547هـ/ 1121م- 1152م، عين سنة 543هـ/1148م الفقيه مطرف بن علي بن حمدون قائدا للجيش الحمادي في غزوه لتوزر.

ابن خلدون : العبر، ج6، ص 363 .

حول سفارة الفقيه أبو القاسم بن مالك من قلعة بني حماد إلى القيروان سنة 438هـ/1044م، أنظر القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود، منشورات دار الحياة ومكتبة الفكر، بيروت، 1387هـ/1967، ،ج4 ص 445 وما بعدها .

[1] مؤلف مجهول : مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2005، ص 124 وما بعدها؛ ابن خلدون : العبر، ج6، ص 349 .

[2] المصدر السابق، ص 324 .

ياسين شيخ دولة المرابطين وهو ما يعني تحليه بمميزات الفقيه المؤسس أم كان مجرد أحد سيوف الدولة الزيرية يتجع تخوم زناته بآشير حارسا لطرقها التجارية من الخطر الزناتي الموالي للأمويين بقرطبة؟ .

تكاد تتفق أغلب المصادر المتوفرة لدينا على أن نجاح حماد في درء الخطر الزناتي وتحكمه في ولاية آشير دفعه إلى الاستقلال، ومن هؤلاء صاحب مفاخر البربر(ق7 هـ /13م) في قوله:"وقد أفرده ابن أخيه باديس بولايتها – أشير- فشدها وحسن ميثاقه في دفع زناتة عنها واقعد لنفسه هناك ملكا فلم يعد إلى أرض القيروان" [3] ،وكذلك اقترب النويري من هذا الاتجاه فربط بين تعيين حماد واليا على آشير وبروزه بهذه الولاية كقوة عسكرية وسياسية يقول: " ثم اتسعت أعماله وعظم شانه وكثرت عساكره واجتمعت أمواله "[1] بينما بدى ابن خلدون أكثر وضوحا عندما استخدم عبارة "ثم استقل سنة 387 هـ /996م أيام باديس بن أخيه المنصور [2] وهكذا فإن انتصار حماد في حروبه على زناته مدة أكثر من عقد من الزمن [3] أهله إلى نيل لقب نائب باديس[4].

لكن حماد لم يجهر بهذا الاستقلال، وظل يبدو بمظهر الذائد عن صنهاجة ومسالك تجارة الذهب والرقيق الواصلة بين سجلماسة وافريقية مسرورا بالحضنة والراب ضد خطر زناته" فعظم عناؤه فيها و أثخن في زناته وكان مظفرا"[5]، وقد لقي جهده هذا استحسانا من طرف بني زيري الذين ضمنوا بفضله استمرار تدفق تجارة الذهب والرقيق على إفريقية وسلامة طرقها لما كان ذلك يمثله على صعيد

---

1 المصدر السابق، ص 126 .

2 المصدر السابق، ص 324 .

3 العبر، ج6، ص 349

4 نفسه، ج6، 350 .

5 ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص 386

6 ابن خلدون: العبر، ج6، ص 350 .

الحياة الاقتصادية للدولة الزيرية فكافاه باديس المنصور سنة 1004/395م رسميا بحق الاستقلال بآشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه من بلاد زناته والسماح له باختيار مكان عاصمته التي بناها سنة 398 /1007م[6].

غير أن هذه المكافأة لم تدم طويلا، لما عين الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 1014/405 المعز بن باديس وليا للعهد وقيام والده باديس بن المنصور بمطالبة عمه حماد بتسليم تيجيس وقصر الإفريقي وقسنطينة لولي العهد مما يعني إلغاء الاتفاق المبرم بينهما سنة 1004/395م الذي يقر بحق حماد في الاستقلال[7] وقد حدد النويري أهداف باديس من ذلك بقوله: "حتى يرفع قدره – أي ابنه – ويضيف إليه أعمالا يستخدم له فيها أتباعه وصنائعه "[8]. ولا شك أن هذا الإجراء كان بمثابة زلزال عنيف هز حماد وحكمه الناشئ بالقلعة أدرك من خلاله أهمية المشروعية الدينية في إنشاء الدولة، لذا رفض قرار باديس بالتسليم وخالف دعوة الفاطميين ودعي للعباسيين [1] فهل كان اعتصام الزيريين بالفاطميين سببا في تقمص حماد بن بلكين رداء الفقيه المؤسس أم أن عناصر الشخصية الدينية متصلة في ذاته حقا. إن مواجهة حماد للزيريين وحلفائهم الفاطميين بالدعوة للعباسيين سنة 405هـ /1013م لم يكن مجرد رد فعل ميت بحكم عدم تلقيه الرد من العباسيين بقدر ما يدعونا إلى الغوص في شخصية حماد الدينية التي تطرح البعد المذهبي في حركته الانفصالية .

---

[6] نفسه ، ج 6، ص 350، حسب Lucien Golvin، فان قلعة بني حماد بنيت نتيجة عجز مدينة آشير على توفير الشروط الأمنية والدفاعية في مواجهة اهجمات الزيانية، *Le Magreb central à l'époque des Zirides*, Paris, 1957, p. 100

[7] المصدر السابق، ج9، ص 253 .

[8] المصدر السابق، ص، ص 329، 330 .

[1] ابن الأثير : المصدر السابق، ج9، ص 255، يذكر ابن خلدون أن حاشية باديس من أقربائه ومن الأعجام حقدت على حماد وظلت توشي به لدى باديس إلى أن أفسدت بين الطرفين، العبر، ج6، ص 350، يرجح Lucien Golvin, *op. cit.*, p. 104.أن يكون حماد قد تراجع عن انتمائه المذهبي للعباسيين عقب الصلح سنة 408هـ/ 1018م. *Magreb central* .p 104

فقد دل نزر المعلومات القليلة حول هذا الموضوع ما يمكن التأسيس لنمط الشخصية الجامعة بين الفقه والسياسة، ففيما يخص تكوينه الفقهي والفكري تشير رواية ابن الخطيب إلى انه قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال وغادرها واليا على آشير والمسيلة في عهد المنصور بن بلكين و لم يعد إلى القيروان بعدها[2]، كما أن شخصية حماد الدينية تدعو إلى التأمل خاصه وأنه كان يصوم رجب وشعبان ويمتنع عن شرب الخمر ولما بنى مدينة القلعة استكثر فيها المساجد[3].

ثم إن ذلك يتوافق مع الأبحاث الأثرية التي توصلت في القلعة إلى العثور على محارب داخل قصور الأمراء الحماديين يتعبدون فيها خصها ابن خلدون بملاحظة هامة فحواها "أن ملوك البربر يتخذون المساجد بصحن دورهم و سدة خلافتهم ومنكهم يعمرونها بالصلوات والتسبيحات والقراء المرتلين لتلاوة كتاب الله أحزابا بالعشي والإشراق على الأيام"[1].

وهذه القرائن تنهض دليلا قاطعا على أن شخصية حماد الدينية تنطوي على أبعاد مذهبية تضاف إلى جهود الفقهاء المالكية في مواجهة الشيعة، شفيعنا في ذلك أن رد حماد على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وممثله بافريقية باديس بن المنصور كان، بالدعوة للعباسيين وقتل الرافضة والتوسع إلى عمق الدولة الزيرية حيث وصل باجة وتونس ونجح في تحريك أهلها ضد الرافضة والمشارقة[2].

---

[2] تاريخ المغرب في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما جرى ذلك من شجون الكلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد الكتاني، دار الكتاب اللبناني، 1964، ص 86 .

3 الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية من القرن 10 إلى القرن 12 م، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص143 .

[1] ابن خلدون : العبر، ج6، ص 209، 350 .

[2] ابن الأثير : المصدر السابق، ج9، ص 255 .

وهذه الأحداث تثبت أنه لم يكن كالحجاج بن يوسف الثقفي كما ذكر النويري، مجرد سيف مطيع للدولة الزيرية [3]، بل دلت نصوص أخرى على أنه سياسي حاذق ومحنك مزج بين الفعل السياسي والغاية المذهبية .

فقد استثمر موجة القحط والمجاعات والأوبئة والغلاء الشديد المتتابعة التي ضربت المغرب الإسلامي برمته من 379 هـ /990م إلى 407 هـ /1016م [4] في تحقيق مكاسب سياسية حيث إفتك سنة 395 هـ /1004م الاعتراف الرسمي من باديس بن المنصور كما سبق الحديث عنه في ضل أزمة اشتد فيها الغلاء بافريقية وأعقبه وباء عظيم، فكان يدفن في اليوم الألف والأكثر والأقل [5] ، مما يعني انه كان منذ وجوده في ولاية آشير يفكر في مشروع الدولة التي وشح تأسيسها بوشاح المذهبية إدراكا منه بأهميتها في تحقيق المشروعية.

تداعيات قيام الدولة المركزية بقلعة بني حماد:

تعتبر الدعوة الدينية و المذهبية السنية التي انتهجها حماد بن بلكين بمثابة التوجه السياسي للدولة الحمادية كما ترمز إلى المشروعية التي انبعثت منها وظيفة الإصلاح مما يقوي نظرية التلازم بين قيام الدولة بالمغرب الأوسط وبروز ظاهرة الإصلاح التي تنفصل بدورها إلى شقين يتعلق أولهما بالإصلاح في الحياة الدينية والاجتماعية ويتصل الثاني بالإصلاحات الجبائية.

أ/ الإصلاح الديني والاجتماعي:

ويبرز من خلال قيام حماد بن بلكين بإدخال إصلاحات دينية على مجتمعه وفق طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "حيث عاقب المنحرفين عن الشريعة كما

---

[3] المصدر السابق، ص 332 .

[4] ابن أبي الزرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فارس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1440هـ/1999م، ص 145، حول تفاصيل هذه الأوبئة والمجاعات أنظر ابن الخطيب : المصدر السابق، القسم الثالث، ص 85، ابن خلدون : العبر، ج6، ص 349 .

5 النويري : المصدر السابق، ص 328 .

يشير إلى ذلك صاحب الاستبصار في حادثة الشيخ الذي انتزعت منه زوجته بأسلوب متحايل[1] و يبدو أن ذلك اكتنف مرحلة التأسيس فقط و لم ينطبق على كل التاريخ الديني والاجتماعي للدولة الحمادية، ذلك لأن الحماديين لم يهتموا اهتمام الموحدين بتعداد البدع والمآخذ على الخصوم [2] بسبب سياسة الانفتاح الاجتماعي والديني والثقافي والاقتصادي الذي اعتمدته الدولة خصوصا في مرحلة الحكم ببجاية .

أما خارج دائرة الإصلاح الديني والاجتماعي الرسمي الذي قامت به الدولة المركزية، فهناك محاولات إصلاحية عبرت عن هويتها بأساليب مختلفة، توشحت في العموم بوشاح الزهد والتصوف مما يعني أن هناك علاقة متينة بين ظهور التصوف واستتباب الدولة المركزية بالقلعة ومعنى واضح أن ظهور التصوف يعود إلى تشعب العلاقات وتعقدها بين الحاكم والمحكوم.

ولا غرابة أن ظهر في مطلع القرن 6 هـ /12م بالقلعة كوكبة من الصوفية تأثروا بنظرية أبي حامد الغزالي في التصوف وكتابه إحياء علوم الدين ومن ابرز هؤلاء أبو الفضل بن النحوي (ت 513/1119م) الذي تميزت آراءه الإصلاحية بنبرة حادة مناهضة لسلوكات المجتمع الحمادي بالقلعة ذلك لأن صنهاجة رغم اندماجها في المنظومة الإسلامية منذ الفتح إلا أنها لم تتخلص من موروثها الاجتماعي القديم، وأعني به بدع العادات كالجنوح إلى الاستكثار من الجواري[1] وقتل المحارم في الحروب

---

[1] مؤلف مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر ألفرد دوكرومر، 1852، ص 22 .

[2] ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس للنشر، بيروت، 1383هـ/ 1964م، ص 174 ؛ محمد القبلي : حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط، منشورات الفنك، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص 41 .

[1] يذكر النويري أن بلكين بن زيري كان له في موضع ألف امرأة لا يحل له النكاح واحدة منهن، لأنهن كن من نسل اخوته وأخواته وله من الجواري أربعمائة جارية: المصدر السابق، ص 317.؛ هي نفس الرواية تقريبا أوردها ابن حزم الأندلسي ولكن عن زاوي بن زيري ، نقط العروس، ج2، تحقيق احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص 96 .

خشية الهزيمة والخوف من المعرة [2] وسفور المرأة واختلاط الجنسين [3] وهي الظواهر التي تأفف منها أبو الفضل بن النحوي وعبر عنها بقوله :

أصبحت فيمن له دين بلا أدب ومن له أدب عار من الدين

أصبحت فيهم وحيد الشكل منفردا كبيت حسان في ديوان سحنون [4]

ب /أما شق الإصلاحات الجبائية : فان الدولة المركزية بالقلعة بدت عند تأسيسها بمظهر المتفاني في القضاء على المكوس والمغارم غير المشروعة، وذلك بهدف جذب العنصر الديمغرافي لتوطين المكان وقد فعل ذلك حماد عندما جلب إلى القلعة خيار مدينة المسيلة [5] وسكان سوق حمزة و قبيلة جراوة الأوراسية دون تكليفهم بأعباء المغارم والمكوس [6] .

كما أن الناصر بن علناس (454-481/1062-1088) لما نقل عاصمة الدولة إلى بجاية سنة 461/1088 وهي في الواقع مرحلة ثانية من التأسيس أسقط المغارم والمكوس على الراغبين في توطين بجاية [7] وهي ظاهرة تكاد تكون متكررة في مرحلة تأسيس الدول المركزية بالمغرب الإسلامي رصدها لنا ابن خلدون مبينا العلاقة بين مرحلة التأسيس وإسقاط المغارم والمكوس في قوله : "اعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال فتتجافى

---

[2] حول قتل حماد بن بلكين لحرمه عقب اقترافه بالشلف أمام بادين أنظر النويري :المصدر السابق، ص 332 .؛ تكررت كذلك ظاهرة الإغتيال داخل البيت الحمادي على كرسي الحكم : أنظر ابن حزم : المصدر السابق، ص 89 .

[3] البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 33 ؛ ابن خلدون : العبر، ج6، ص 367 .

[4] ابن الزيات التادلي : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أدلوف فور، مطبوعات افريقية الشمالية، الرباط 1377هـ/1958م، ص 74 .

5 النويري : المصدر السابق، ص 332 .

[6] ابن خلدون : العبر، ج6، ص 350 .

[7] نفسه، ج6، ص 357 .

عن الإمعان في الجباية والتحذلق والكيس في جميع الأموال وحسبان العمال ولا داعية حينئذ إلى الإسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة لكثرة المال"[1]، غير أن هذه السياسة الجبائية لم تصمد في وجه الحاجيات المادية للدولة والحكام إذ بمجرد تحقيق غاية التأسيس عادت الجباية في صورتها الفاحشة ذكرها أيضا ابن خلدون واصفا مشاهد الجباية واستخلاص المكوس وممارسة اقتصاد المغازي -السبي والغنائم- على القبائل الخارجة عن سلطة الدولة المركزية[2] وقد ازدادت هذه الظاهرة استفحالا بقدوم القبائل الهلالية التي كلفت من قبل أمراء الدولة الحمادية بوظيفة الجباية، وما انجر عنها من ظلم وتعد أفسد العلاقة بين الدولة والرعية[3].

ج /المجال:

إلى جانب ذلك أعطت الدولة المركزية بالقلعة لمصطلح المغرب الأوسط مفهوما جغرافيا جديدا وواسعا فبعد أن كان يعني به قبل القرن الخامس الهجري، وطن زناته الممتد من ملوية غربا إلى وادي الشلف والزاب شرقا ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى إقليم تيهرت جنوبا، أصبح بفضل الانتشار العسكري والسياسي للدولة الحمادية بالقلعة يمتد إلى ما وراء تلمسان غربا وورجلان جنوبا وبونة شرقا[4] وقد سجل لنا الشريف الإدريسي هذا التحول الجغرافي بقوله:"ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد،ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب"[5].

---

[1] المقدمة ، ص 191 .

[2] العبر، ج6، ص 356 .

[3] نفسه، ج6، ص 367 .

[4] نفسه، ج6، ص، ص 17، 350، 360 .

[5] نزهة المشتاق، ص 102 .

ولا غرابة أن ترافق ذلك مع استعمال الإدريسي لمصطلح المغرب الأقصى الذي كرره سبعة عشرة مرة[6]، مما يعني ان الصلح الذي تم بين الدولتين الصنهاجيتين سنة497 هـ في عهد المنصور بن الناصر ونظيره المرابطي يوسف بن تاشفين قد رسم فعلا جغرافيا الدولتين وأصبح ذلك متعارف عليه إلى زمن الإدريسي في منتصف القرن 6 هـ /12م[1].

د /وحدة الثقافة و الفكر:

مما لا شك فيه أن الدولة المركزية بالقلعة ثم بجاية وقد وفقت على مدار مائة وأربعين سنة (407-547/1016-1065) في تجسيد وحدة ثقافية وفكرية صلبة لم تجسر التجزئة السياسية التي طالت المغرب الأوسط عقب سقوط الموحدين من أن تنال منها، شفيعنا في ذلك تلك المنهجية التي كتب بها قاضي بجاية أبو العباس احمد الغبريني (ت704/1306) كتابه "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" استعرض فيه فقهاء وعلماء وصوفية مدن المغرب الأوسط من بونة قسنطينة وسطيف وبجاية وزواوة وبني غبرين ومشدالة وبني وغليس وجزائر بني مزغنة واريس ومليانة[2] .رغم أن بجاية وقسنطينة وبونة كانت مدن حفصية في القرن7هـ /13م وبالتالي يكون قد عاكس الانتماء السياسي، لفقهاء وعلماء وصوفية هذه الحواضر والبوادي وأصر على انتمائهم الثقافي والفكري كما جذرتها الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية شفيعنا في ذلك ترجمته للفقيه الصوفي

---

[6] محمد القبلي : الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،1997، ص 74 .

[1] ابن خلدون : العبر، ج6، ص 386 .

[2] أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 66، 93، 94، 103، 119، 135، 141، 169، 171، 183، 188، 194، 215، 216، 217، 280.

أبي محمد عبد الحق بن الربيع البجائي (ت1277/675) بقوله :" لم يكن بمغربنا الأوسط مثله"[3].

هـ /التعمير والبناء:

أشار ابن حوقل في كتابه صورة الأرض إلى حقيقة لا مراء فيها ، و هي أن ظاهرة إنشاء المدن والمراكز الحضرية بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين /9-10الميلاديين كانت صناعة عربية وأندلسية مثل بناء المهاجرين الأندلسيين لمدينتي تنس و وهران[4] وتشييد الفاطميين الشيعة لمدينتي المسيلة وآشير[1] بيد أن تشييد حماد بن بلكين لمدينة القلعة في خاتمة القرن4هـ/10م قد دفع البربر في القرن الخامس الهجري /11م إلى أخذ بزمام المبادرة والشروع في البناء والتعمير وهو ما يمكن أن نسميه بعصر الاستفاقة الحضارية للبربر وهضمهم للأمور السياسية وملا مستهم للحضارة في إطار المنظومة الإسلامية ، ذلك لان البربر لم يعيروا قبل القرن الخامس الهجري/11م أدنى اهتمام للعمران بسبب فيض من العوامل التاريخية والثقافية والاجتماعية وقف عندها ابن خلدون بدقة متناهية ضمن نظرية العلاقة بين البداوة والعمران نوجزها فيما يلي:

أولا: لأن البربر أهل عصبيات وأنساب والعصبية اجنح للبدو وإنما يدعو إلى المدن الدعة و السكون.

ثانيا : أن الدول الرومانية والبيزنطية التي حكمت البربر لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى تترسخ الحضارة.

ثالثا: بعد البربر عن الصنائع، لأنهم اعرق في البدو والصنائع من توابع الحضارة وإنما تتم المباني بها، فلا بد من الحذق في تعلمها[2].

---

[3] نفسه، ص 88 .

[4] البكري : المصدر السابق، ج2، ص 252 .

[1] ابن حوقل: المصدر السابق،ص 85 .

[2] ابن خلدون : المقدمة، ص 226 .

ومن هذا المنظور يكون إنشاء مدينة قلعة بني حماد على جبل تاقربوست بمرتفعات جبل المعاضيد، قد كان فاتحة خروج البربر من الخيام والظواعن والقياطن وكنن الجبال إلى الشروع في حركة العمران بلغت مداها في عهد المنصور بن الناصر ابن علناس الذي كان" مولعا بالبناء، حضر ملك بني حماد وتانق في اختطاط المباني وشيد المصانع، وبنى القصور وأجرى المياه ...." وعلى نهجه سار أمراء الدولة الحمادية الآخرين[3].

ومن جميع ما سبق ذكره، نصل بالقول إلى أن تجربة الدولة المركزية عندنا بالمغرب الأوسط قد تفجر عنها وضع عمراني وثقافي وفكري دشن لعصر جديد يمكن أن نطلق عليه عصر الاستفاقة الذي تزامن مع بدايات الحركات التجارية الأوربية المتوسطية. فقد حققت المجال الجغرافي الذي سمح الاستقرار على أرضه بوجود انسجام سكاني بين البربر والعرب فرضه التوغل العميق للحضارة العربية في المجتمع من خلال عناصر الدين واللغة والروابط التجارية مع المشرق ودرجة التمدن، وتعزز أكثر بانتصار المذهب المالكي وانحسار المذهب الخارجي إلى المناطق الجنوبية، وبعيدا عن الدولة ونظمها تبلورت تجربة الولاية –التصوف -- التي كانت من الردود الفاعلة المؤثرة في تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط عبر مراحله، و لولا فساد الأعراب الهلالية في هذا المجال لأضاءت منارة القلعة بعلومها ومعارفها ارض المغرب والمشرق وأوروبا .

[3] ابن خلدون : العبر، ج6، ص 358 .